التحولات الدولية والقوميات الدينية

جنكيز تشاندار*

القومية الإسلامية التركية ونهاية "النموذج التركي"**

عجّلت الأيديولوجيا القومية التركية التي تبنّاها حزب "الاتحاد والترقي" السياسي الحاكم في آخر عهد السلطنة العثمانية بزوال السلطنة، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى، انهار الحكم العثماني. وبعد أن خسرت السلطنة الأراضي التي كانت تحتلها في المنطقة العربية وفي الشرق الأوسط، حلت محلها الجمهورية التركية العلمانية ذات التوجه الغربي بقيادة جنرال عثماني هو مصطفى كمال أتاتورك. وبعد قرن تقريباً من انهيار السلطنة العثمانية، ربما يكون للقومية التركية التي تبنّاها هذه المرة حزب العدالة والتنمية الحاكم ذو التوجهات الإسلامية بقيادة رجب طيب أردوغان، وهو شخصية في مثل قوة كمال أتاتورك، تبعات مدمرة على تركيا والمنطقة المجاورة.

إنه في الواقع تحوّل مأسوي بالنسبة إلى تركيا لأنه قبل ستة أعوام ليس أكثر، اعتبر حزب العدالة والتنمية وزعيمه أردوغان "النموذج التركي" قدوة للأنظمة العربية الجديدة المنبثقة من ثورات الربيع العربي. ومع ذلك، وخلال فترة قصيرة، وفي موازاة صعود التيارات القومية في الساحة الدولية، بدا أن الدمج بين التوجه القومي والإسلامي في تركيا يعني التخلي عن "النموذج التركي".

"النموذج التركي" هو باختصار التوفيق ما بين الإسلام السياسي والديمقراطية التعددية الليبرالية المعتمدة في الأنظمة الغربية. وقد ساد الاعتقاد على نطاق واسع أن تركيا، وفي ظل حكم حزب العدالة والتنمية الإسلامي، أثبتت أن من الممكن قيام ديمقراطية فاعلة في إطار الإسلام السياسي.

لكن، ومثلما كتب الصحافي الباكستاني المرموق أحمد رشيد في ٢ آب/أغسطس ٢٠١٦، فإن التجربة التركية أعلنت فشلها بعد أسبوعين فقط من محاولة ١٥ تموز/يوليو الانقلابية العسكرية، وذلك في مقالة بعنوان "النموذج التركي السيء السمعة هو أسوأ مثال يُحتذى".

---

* صحافي وكاتب تركي.

** مقالة خاصة بـ "مجلة الدراسات الفلسطينية"، كُتبت باللغة الإنجليزية بعنوان:
New Turkey of Erdogan: New Turkish Muslim Nationalism and the End of Turkish Model
ترجمة: صفاء كنج.
جميع الهوامش هي من وضع المحرر.

يؤكد رشيد في تحليله النقدي المنشور في مجلة "فايننشال تايمز" أهمية تركيا بالنسبة إلى العالم العربي، ويبدأ مقالته قائلاً: "كلما قامت تركيا بخطوة، تبعها العالم الإسلامي بلا تردد، لكن حكومتها الإسلامية الآن تسلك مسار القمع الشامل وتضيّق الخناق على جميع مظاهر المجتمع الليبرالي، ولهذا يمكننا أن نتوقع أن يلجأ الحكام المسلمون في أنحاء العالم كله إلى معاملة شعوبهم بالمثل. فبعد اعتقال ٦٠،٠٠٠ شخص، أو فصلهم من وظائفهم، تكون تركيا قد قدمت المثال الأسوأ."[١]

لم تعد تلك الأرقام سوى أرقام متواضعة. ففي شباط/فبراير ٢٠١٧، وبعد نصف عام من فرض حالة الطوارئ، بلغ عدد الذين فُصلوا من أشغالهم أكثر من ١٢٨,٠٠٠ شخص، بمَن فيهم نحو ٧٣٠٠ من الأكاديميين الذين فقدوا وظائفهم، و٣٥٤٣ قاضياً ووكيل نيابة فُصلوا من عملهم ووُضع بعضهم في السجن. وفي تركيا اليوم نحو ٩٢,٠٠٠ معتقل، و٤٥,٠٠٠ موقوف، وهي الآن أكبر سجن للصحافيين في العالم، مع وجود ١٦٢ صحافياً خلف القضبان، وبعضهم من كبار كتّاب الأعمدة وكتّاب الرأي المرموقين، وهو عدد يتجاوز مجمل أعداد الصحافيين المعتقلين في إيران وروسيا والصين مجتمعة.

وحتى قبل أن يرتفع عدد ضحايا القمع إلى هذا المستوى الضخم، فإن أحمد رشيد يسأل في مقالته: "هل سيظل العالم المسلم يسير خلف تركيا بعد القمع الساحق لحركة الانقلاب، وتحقير سمعة القائد الروحي الصوفي المعتدل فتح الله غولن، وشنّ حملة تطهير شملت آلاف الأكاديميين والصحافيين، وإصلاح نظام الدولة الذي يستعد السيد أردوغان لإطلاق العنان له؟"[٢]

تمثل تركيا حالة دراسية لأولئك الذين يصنفونها ضمن فئة الأنظمة التي تبتعد عن ديمقراطية منقوصة نحو نظام ديكتاتوري ذي مرتكزات قومية، ويحكمه رجل واحد. ويبدو أن الرجال الأقوياء يحظون برواج هذه الأيام في كل مكان، وليس الرئيس الروسي فلاديمير بوتين سوى أفضل مثال، بينما يُعتبر الرئيس رجب طيب أردوغان بالنسبة إلى كثيرين، نسخة تركية عن بوتين. فبعد المحاولة الانقلابية في منتصف تموز/يوليو ٢٠١٦، استرعى الاهتمام الدولي القمع الذي مارسه أردوغان ضد المعارضة ودفعه في اتجاه تركيز السلطة في يديه من خلال تغيير الدستور، بل إنه حتى في الاتحاد الأوروبي يعتبره البعض قدوة، مثل فيكتور أوربان، رئيس حكومة المجر.

وربما يكون رجب طيب أردوغان الذي يتقدم نزعة تلقى رواجاً على الصعيد العالمي، هو نفسه نتاج لمثل هذه النزعة التي أنتجت رجالاً أقوياء شعبيين وشعبويين يتبنّون خطاباً قومياً قوياً، مثل الرئيس الصيني شي جين بينغ ورئيس حكومة الهند نارندرا مودي. وانتخاب دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة الأميركية ليس سوى تتويج لهذه النزعة التي يشغل فيها أردوغان مكانة بارزة.

لكن أردوغان يتحلى بكثير من الصفات المشتركة مع شخصيات تبدأ من صدام حسين وتنتهي بمعمر القذافي، ومن هوغو تشافيز في فنزويلا إلى سيلفيو برلوسكوني في إيطاليا، الأمر الذي يجعله شخصية فريدة تضفي مزيداً من التميّز على النموذج التركي للحكم الطويل لحزب العدالة والتنمية تحت قيادته الاستثنائية.

إن "النموذج التركي" والسمات الفريدة التي يحملها هما ظاهرة معقدة، كما أن صعود أردوغان إلى مكانة عالمية مرموقة سار جنباً إلى جنب مع تصاعد "شخصنة" النظام السياسي في تركيا.

ليست تركيا غريبة عن مثل هذه "الشخصنة"، فالجمهورية التركية منذ تأسيسها حملت البصمة القوية لمؤسسها كمال أتاتورك الذي كان هو أيضاً "نموذجاً" على المستوى الدولي. ولا يعتبر مؤيدو أردوغان من المسلمين السنّة الأتراك، وجود شخصية غير عادية مثل أردوغان مفارقة تاريخية، بل إنهم على العكس يرونه منسجماً مع روح العصر. إن المسار الجديد الذي يبتعد عن كون تركيا

ديمقراطية مسلمة، ويتجه نحو حكم تسلطي، أي خليط من الأنظمة الاستبدادية التي كانت سائدة في "العالم الثالث" وأنظمة الحزب الواحد الفاشية في ثلاثينيات القرن الماضي في أوروبا، يتم ترويجه من جانب الرئيس والموالين له على أنه ولادة "تركيا الجديدة".

على هذا الأساس، يرى أردوغان أنه يجب الاحتفال بتاريخ فشل انقلاب منتصف تموز/يوليو باعتباره "يوم النصر" الذي يرمز إلى ولادة "تركيا الجديدة". بيد أن العديد من المراقبين الأتراك والدوليين يعتبرون أن ذلك التاريخ هو في الواقع بمثابة "حريق الرايشتاغ" بالنسبة إلى أردوغان، في تشبيه مجازي لحريق البرلمان الألماني الذي استخدمه هتلر في سنة ١٩٣٣ بهدف إقامة نظام قمعي والتخلي عن مبادئ الديمقراطية الليبرالية الغربية كافة. وأولئك الذين يتبنّون وجهة النظر هذه يعتبرون أن العودة إلى ديكتاتورية الرجل الواحد ترمز إلى إفلاس الإسلام السياسي في تركيا.

وأياً يكن الأمر، فإنه يجب عدم الخلط بين الإسلام السياسي الذي يمثله حزب العدالة والتنمية، وبين نماذج أُخرى من الإسلام السياسي في العالم الإسلامي الأوسع، فهو قومي تركي بقدر ما هو إسلامي. وعلى هذا الأساس، فإنه يشترك في سمات كثيرة مع القومية الكمالية في تركيا على الرغم من أن حزب العدالة والتنمية يُصوَّر بطريقة خطأ على أنه رفض للحركة الكمالية.

ويكمن الاختلاف بين حزب العدالة والتنمية والكماليين العلمانيين القوميين الذين شكلوا النخبة التركية الحاكمة منذ عشرينيات القرن الماضي وحتى تولي حزب العدالة والتنمية الحكم في بداية الألفية الثانية، في السردية التاريخية. فبالنسبة إلى الكماليين، بدأ كل شيء مع أتاتورك في سنة ١٩١٩ عندما قاد النضال القومي الذي أوصله إلى سدة الحكم مع تأسيس الجمهورية في سنة ١٩٢٣، أمّا حزب العدالة والتنمية الأردوغاني فترجع جذوره إلى سنة ١٤٥٣، وهي السنة التي تم فيها فتح إستانبول (التي كانت حينها القسطنطينية الرومانية الشرقية أو اليونانية البيزنطية) وتحويلها إلى عاصمة لسلطنة مسلمة.

كتبت جيني وايت في كتابها المؤثر "القومية المسلمة والأتراك الجدد":[٣]

> لدى حزب العدالة والتنمية رؤية "ما بعد إمبريالية" مرتكزة على إرث السلطنة العثمانية، وهي التي ترشد الحزب في مسعاه لأن يصبح قوة عالمية وليس فقط قوة شرقية. فالقوميون المسلمون يرون أن اللحظة الرمزية المؤسسة للقومية التركية هي لحظة الفتح، وتصورهم للمستقبل يستند إلى قيام اتحادات اقتصادية وسياسية بقيادة تركية وليس أمة إسلامية تشغل فيها تركيا مكانة مساوية إلى جانب أمم إسلامية أُخرى. وفي الواقع، فإن الأتراك على اختلاف اقتناعاتهم السياسية يعتبرون الإسلام التركي مختلفاً وأعظم شأناً من أشكال الإسلام الأُخرى، ولا سيما تلك التي تمارس في العالم العربي.

أعاد أردوغان بداية العملية إلى سنة ١٠٧١، فهو يعتبر أن العملية التي ستصل إلى مبتغاها بفضل قوته بدأت فعلياً في تلك السنة عندما انتصر السلاجقة الأتراك بقيادة السلطان ألب أرسلان على البيزنطيين في معركة مانزيكرت (ملاذكرد اليوم، وهي مدينة في شرق الأناضول سكانها من الأكراد)، وهو تاريخ مقدس بالنسبة إلى اليمين المتطرف، والقوميين الأتراك المتشددين في حزب الحركة القومية. وبرز حزب الحركة القومية كحليف مقرب من أردوغان وحزب العدالة والتنمية بعد انقلاب ١٥ تموز/يوليو العسكري، وهو يدعم أردوغان في حملة تعديل الدستور الذي سيؤدي إلى حكم الرجل الواحد.

لكن البراغماتية أو ضرورات ما بعد انقلاب منتصف تموز/يوليو ليست هي التي حملت الإسلاميين في حزب العدالة والتنمية على مصاهرة القوميين الأتراك، إذ إن العلاقة التكافلية بين الإسلام السياسي والقوميين الأتراك ليست بجديدة. وقد فطن إلى هذا الأمر المحلل الفنلندي المختص بشؤون تركيا وحزب العدالة والتنمية توني ألارانتا الذي لاحظ في مقالة نُشرت في كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٦ بعنوان "الإسلامية والقومية التركية قبل الانقلاب الفاشل وبعده"، أنه "بقدر ما يستخدم الإسلام السياسي لحزب العدالة والتنمية النصوص الدينية والرموز والتقاليد، فإنه يلجأ إلى الخطاب القومي المألوف. وهذه العملية كانت جارية قبل الانقلاب الفاشل، لكنها باتت أكثر وضوحاً في أعقابه."[٤]

وقبل أكثر من عام من محاولة الانقلاب، كتب ألارانتا مقالة مهمة تناولت المرتكزات القومية القوية لإسلامية حزب العدالة والتنمية بعنوان: "حزب العدالة والتنمية والتقاليد القديمة لتركيا المرتكزة على الفاشية ـ الإسلامية".[٥]

قد يبدو الأمر مثيراً للجدل أو عدائياً إزاء حزب العدالة والتنمية، غير أن القومية التركية متأصلة، فكرياً ووجدانياً، في الرمز الوراثي لحزب العدالة والتنمية. فحزب أردوغان خرج من عباءة الحركة الإسلامية بزعامة الراحل نجم الدين أربكان الذي مثّل الإسلام السياسي التركي بصفته "الأب المؤسس" منذ نهاية ستينيات القرن الماضي حتى ولادة حزب العدالة والتنمية في سنة ٢٠٠١ الذي أدى تبوؤه لاحقاً سدة الحكم إلى أن يفقد أربكان والموالون له أهميتهم.

"الأربعة الكبار" المؤسسون لحزب العدالة والتنمية في سنة ٢٠٠١ هم رجب طيب أردوغان وعبد الله غل وبولنت أرينش وعبد اللطيف شينير، وكان أردوغان "الأول بين نظرائه"، وبالتالي تولى زعامة الحزب. وكانت خلفيتهم الأيديولوجية كلها ترتكز على "ميللي غوروش" بالتركية، ومعناها حرفياً "الرؤية القومية" التي كانت عنوان البيان السياسي الذي كتبه نجم الدين أربكان في سنة ١٩٦٩.

"ميللي غوروش" ("الرؤية القومية") ليست سوى النسخة التركية من الأيديولوجيا الإسلامية السياسية خلال الحقبة التاريخية للنصف الثاني من القرن العشرين، وهي تؤمن بأن تركيا يمكنها أن تكون بلداً مكتفياً اقتصادياً إذا تطورت وابتعدت عن الغرب، وبالتالي تحررت من استغلال الغرب، وأن عليها أن تبني صناعة ثقيلة، وأن تتبنّى نظاماً مصرفياً لا يعتمد على الفائدة. ويُفترض بتركيا المكتفية اقتصادياً أن توحّد العالم الإسلامي من خلال منظمة التعاون الإسلامي الموازية للاتحاد الأوروبي، وتشكل سوقاً إسلامية مشتركة، وقد اقترحت أن تستخدم الدول الإسلامية عملة موحدة يطلق عليها اسم "الدينار الإسلامي". وعلى تركيا كذلك أن تنسحب من حلف شمال الأطلسي، وأن تشكل مع الدول الإسلامية منظمة عسكرية إسلامية وحدوية.

هذا ما كان عليه المناخ السياسي الأيديولوجي الذي عايشه ونشأ فيه أردوغان. لقد نادت "الرؤية الإسلامية" بوحدة العالم الإسلامي، وبإقامة تحالف معادٍ للغرب بين الدول الإسلامية، لكن في هذا كله، لم تفقد تركيا أو "التركوية" مركزيتها ضمن رؤية أربكان الطوباوية.

كان أردوغان ومعظم كوادر حزب العدالة والتنمية لدى تأسيسه نتاج هذا الخليط "الاستثنائي" من الإسلامية والقومية التركية. فمنذ أعوام المراهقة أصبح أردوغان مريداً مخلصاً لنجم الدين أربكان، وكان الجميع في حزب أربكان الإسلامي (حزب الرفاه) يعتبرونه خليفته المحتمل، لكنه مع ذلك، ولدى تأسيس حزب العدالة والتنمية في سنة ٢٠٠١، لم يتحدث عن أستاذه أربكان، وإنما نصّب نفسه خليفة لعدنان مندريس وتورغوت أوزال.

قدّم حزب العدالة والتنمية في سنة ٢٠٠١ نفسه بصفته حزباً "ديمقراطياً محافظاً"، كأنه أراد أن يكون النسخة التركية للمسيحيين الديمقراطيين والمحافظين في الغرب. وعلى الرغم من ذلك التعريف الذاتي، فإن هذا الحزب الجديد الذي نشأ في بداية القرن الحادي والعشرين، اعتُبر ممثلاً لـ "التيار الإسلامي المعتدل" السنّي، وشكّل نقيضاً للشبكات السلفية الجهادية ممثلة في طالبان في أفغانستان وباكستان، وتنظيم القاعدة وفروعه التي اعتُبرت مسؤولة عن اعتداءات نيويورك وواشنطن في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. لقد تأسس حزب العدالة والتنمية في ١٤ آب/أغسطس ٢٠٠١، قبل شهر تقريباً من تلك الاعتداءات، ولهذا، ومنذ نشوئه، استبشر العالم الغربي والمسلم على السواء خيراً في أن يكون هذا الحزب نموذجاً صالحاً بعد أن أصبح مفهوم الإسلام السياسي مثيراً للجدل ومرتبطاً بالعنف.

وبدءاً من سنة ٢٠٠٢، فاز حزب العدالة والتنمية بالانتخابات كلها، وكان لا يزال عمره عاماً واحداً، وحقق نجاحاً كبيراً على الصعيد الاقتصادي، فألهم العديد من المفكرين والسياسيين في مختلف أنحاء العالم، للحديث عن "النموذج التركي".

وعززت ثورات الربيع العربي في سنة ٢٠١١ جاذبية "النموذج التركي" عندما بات الإخوان المسلمون قادرين على المشاركة في الحكم في عدد من الدول العربية، وقد عبّر المفكر والقيادي الإسلامي راشد الغنوشي زعيم حزب النهضة التونسي عن إعجابه بنجاح حزب العدالة والتنمية. وفي أعقاب الربيع العربي، تحدث العديد من الخبراء المعروفين عن "النموذج التركي" الذي يمثله حزب العدالة والتنمية، في حين قالت وزيرة الخارجية الأميركية السابقة هيلاري كلينتون إن "تركيا يمكن أن تكون نموذجاً للديمقراطيات الناشئة"، قاصدة بذلك الحكومات العربية الجديدة التي شُكلت نتيجة "الربيع العربي". وكتب الفيلسوف الإسلامي طارق رمضان (حفيد حسن البنا) في ربيع سنة ٢٠١١ في فصلية "آفاق جديدة" (*New Perspectives Quarterly*) أن "تركيا الديمقراطية هي نموذج للإخوان المسلمين في مصر."[٦]

وكتبت جيني وايت في كتابها "القومية المسلمة والأتراك الجدد" عن هذه الظاهرة مع فارق بسيط نوعاً ما:

> طرحت النخب المسلمة في تركيا تحدياً سياسياً واقتصادياً قوياً للعلمانيين في البلد، من خلال تطوير تعريف بديل للقومية يستند إلى إحياء الحنين إلى الماضي العثماني لتركيا. هؤلاء القوميون المسلمون وضعوا المُثل الجمهورية جانباً في أمة يتم التعريف عنها من خلال نقاء الدم واللغة والثقافة. هؤلاء... المسلمون الورعون الذين يحكمون دولة علمانية ويعبّرون بانفتاح أكبر عن هويتهم الإسلامية عبر المشاركة في شبكات اقتصادية وأسلوب حياة يقوم على اتباع الموضة والرفاهية على الطريقة الإسلامية... القوميون المسلمون طمسوا الخط الفاصل بين ما هو علماني وما هو إسلامي عبر تأييدهم العولمة والليبرالية السياسية، ومع ذلك ظلوا غارقين في النزعة الاستبدادية واللاتسامح والمعايير الثقافية المعادية للأقليات والنساء.
>
> ... إن الرغبة لدى هذه الدول (النهضة [في تونس]، مصر...) في استنساخ النجاحات السياسية والاقتصادية التركية ـ كي تصبح ديمقراطيات "مسلمة" مزدهرة مثل تركيا ـ قادت إلى افتراض وجود "نموذج تركي".[٧]

شارك في مؤتمر حزب العدالة والتنمية في أنقرة في ٣٠ أيلول/سبتمبر ٢٠١٢، شخصيات معروفة

من العالم العربي التفّت حول أردوغان، وكان بين أبرز ضيوف مؤتمر حزب العدالة والتنمية الرئيس المصري حينها محمد مرسي، ورئيس المكتب السياسي لحركة "حماس" خالد مشعل الذي وصف أردوغان في خطابه أمام المؤتمر بأنه "لم يعد قائداً تركياً فقط، بل أصبح قائد العالم الإسلامي كله"، وراشد الغنوشي (الذي اتخذ في سنة ٢٠١٦ موقفاً متعارضاً مع أردوغان)، وطارق الهاشمي العضو في حزب الإخوان العراقي والنائب السنّي السابق للرئيس العراقي، وعلي عثمان طه، نائب الرئيس السوداني. وقد أشاد راشد الغنوشي بحزب العدالة والتنمية الذي قال إنه "أعاد تركيا التي كانت تعيش على الهامش منذ أكثر من مئة سنة إلى قلب الأمة."

أردوغان بدوره، ولدى زيارته مصر في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١٢، وصف ثورات الربيع العربي بأنها "عودة إلى الأصول"، مضيفاً أن "الأمم المسلمة لا تحتاج إلى أن تتطلع إلى أي نموذج، لأن الحضارة الإسلامية تقدم الحل للمشكلات الراهنة كافة."

وللمفارقة، هناك بعض المحللين الذين يعتبرون أن تركيا بلغت ذروتها في إبان "الربيع العربي"، بينما جرى الحديث في الغرب وفي العالم الإسلامي عن "النموذج التركي" بصفته نقطة تحول نحو سقوط تركيا. وفي الواقع، وخلافاً للتقويمات التقليدية، فإنه كان من نتيجة "الربيع العربي" أيضاً أن فقد "النموذج التركي" اعتباره. ونشر الباحث الأكاديمي جيهان توغال في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، كتاباً بعنوان "سقوط النموذج التركي: كيف أسقط الربيع العربي الليبرالية الإسلامية" (*The Fall of the Turkish Model: How the Arab Uprisings Brought Down Islamic Liberalism*)، وفي هذا الكتاب الذي تساوى في عنوانه "النموذج التركي" و"الليبرالية الإسلامية"، كتب توغال: "كانت 'الليبرالية الإسلامية' زواجاً بالديمقراطية السابقة ورأسمالية السوق الحرة والإسلام المحافظ (بدرجة مخففة)."[٨]

وقدّم توغال حجة مهمة في تشديده على أن الربيع العربي فتح الباب على خيار قيام انتفاضة داخلية لتخريب الجانب المتعلق بإرساء الديمقراطية في النموذج التركي، إذ كتب يقول: "إن الانتفاضات العربية نسفت في الحقيقة الليبرالية السياسية للنموذج التركي نفسه، إن لم يكن ليبراليته الاقتصادية (بعد). ومع حدوث تغيرات في الأنظمة، تحولت تركيا أكثر فأكثر إلى اليمين السياسي والديني (وإلى التعصب الطائفي الواضح)."

كانت انتفاضة ميدان غيزي، في وسط إستانبول، والتي بدأت من ساحة تقسيم في سنة ٢٠١٣، هي التي أطلقت الاحتجاجات التي عمّت البلد، والتي رأى فيها أردوغان تهديداً مميتاً لسلطته. وجرّاء نشأته السياسية، لجأ، كما هو متوقع، إلى نظريات المؤامرة، وبات يشتبه إلى درجة كبيرة في وجود أصابع (غربية) وراء الاضطرابات في تركيا، واشتبه في أنهم يسعون لقلب نظامه.

دفعت انتفاضة غيزي، أردوغان، إلى مزيد من القمع والاستبداد، وإلى التركيز على حصر السلطة في يده بشكل أكبر، وبالتالي التصرف انطلاقاً من أن بقاء النظام هو أولويته المطلقة. وفي سياق ما بعد أحداث غيزي، دخل مع الداعية فتح الله غولن وأتباعه في صراع مرير على السلطة، فالخلافات كانت تغلي على نار هادئة بين المعسكرين الإسلاميين المختلفين اللذين يحملان رؤيتين مختلفتين للقومية التركية.

كمنت قوة حزب العدالة والتنمية منذ سنة ٢٠٠٢ في الجمع بين شبكات إسلامية متنوعة عمادها الشراكة بين أنصار "الرؤية القومية" السابقة وأتباع الداعية فتح الله غولن، وهي نسخة أُخرى فريدة جداً من الإسلام التركي. لقد كان أنصار فتح الله غولن متغلغلين في أجهزة الدولة التركية، ولا سيما في المؤسسة الأمنية وسلك القضاء، وكانوا يوجهون حكومات حزب العدالة والتنمية خلال العقد الأول من حكم أردوغان إلى أن استطاع اختراق بيئة الدولة التركية المعادية.

بدأ التحالف بين "أنصار غولن وحزب العدالة والتنمية" يهتز في سنة ٢٠١٣، وانهار في نهاية العام التالي عندما فُتح تحقيق جدي بالفساد طال أعضاء في حكومة حزب العدالة والتنمية وعائلة أردوغان، واتُّهم أنصار غولن داخل جهاز الشرطة والقضاء بأنهم يقفون وراءه.

ونجم عن انفراط التحالف بين "أنصار غولن وحزب العدالة والتنمية" وانهيار العلاقات بين المعسكرين الإسلاميين في سنتَي ٢٠١٤ و٢٠١٥، نتائج مهمة وتبعات وتشعبات دولية، الأمر الذي دفع أردوغان إلى العمل على تعزيز سلطاته. وخطوة خطوة، مهد الطريق نحو حكم تسلطي غير متسامح مع أي صوت مخالف أو معارضة لاحتكاره للحكم بهدف ضمان بقائه، وتحرك سريعاً وبدأ بتطهير الشرطة والقضاء من أنصار غولن. وعبر قيامه بذلك، انحاز إلى التيارات القومية في الجيش التي تشعر باستياء كبير من أنصار غولن، والتي كان أفرادها قد سُجنوا وحوكموا بدءاً من سنة ٢٠٠٧، واتُّهموا بأنهم عناصر "الدولة العميقة" في تركيا، أو ما يسمى "دولة داخل الدولة". كانت السمة المشتركة بينهم هي معارضتهم للاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة والأكراد، وقد ألقت هذه العناصر العسكرية بمسؤولية الملاحقات والاضطهاد الذي تعرضت له على عاتق أنصار غولن الإسلاميين داخل الشرطة والقضاء.

إن "الصفقة مع الشيطان" التي عقدها أردوغان ـ المعادي لأنصار غولن ـ مع "الدولة العميقة"، حوّلت تركيا بالتدريج إلى دولة مستبدة ذات ركائز قومية تركية قوية. وفي أعقاب الانقلاب العسكري الفاشل في منتصف تموز/يوليو ٢٠١٦، والذي نُسب إلى "مؤامرة إرهابية دبرها أنصار غولن" وفق الخطاب الرسمي لأردوغان، احتاجت حكومة حزب العدالة والتنمية إلى حليف آخر لتمرير التعديلات الدستورية وإعطاء أردوغان صلاحيات تنفيذية استثنائية، فأيّد حزب الحركة القومية اليميني المتشدد التقليدي أردوغان، وتحالف مع حكومة حزب العدالة والتنمية إلى جانب عناصر الجيش المعادية للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والتشكيلات الكردية.

هذا التحالف الثلاثي بين القوميين الأتراك، والمتحلق حول أردوغان، شكّل روح "تركيا الجديدة".

ومع هذه العدوى القومية التركية القوية، تقوّض الوجه الإسلامي لحزب العدالة والتنمية إلى حد كبير، وبالتالي، وبشكل طبيعي، لم يبقَ شيء من "النموذج التركي" لتقديمه إلى العالم الإسلامي.

على أي حال، إن إفلاس تجربة حزب العدالة والتنمية مع الإسلام السياسي سببه الأساسي أن الفكر الإسلامي في تركيا، ولأسباب متصلة به، متداخل مع الفكر القومي. وبالتالي، فإن هذا الإفلاس عائد إلى أسباب تنظيمية أكثر من كونه نشأ عن حقبة تاريخية محددة، أو ظروف معينة.

إن "الرؤية القومية" لنجم الدين أربكان، والتي نشأ في كنفها أردوغان وعدد كبير من كادرات حزب العدالة والتنمية، تكتسي مظهراً قومياً قوياً لا يتفق مع الجوهر العالمي للإسلام السياسي. وعدا "الرؤية القومية"، فإن أيديولوجيا "التوليف التركي الإسلامي" تتحمل مسؤولية التربية الفكرية لكادرات حزب العدالة والتنمية.

"التوليف التركي الإسلامي" هو نظرية طورتها مجموعة من الأشخاص، معظمهم من الأكاديميين أصحاب الرؤية اليمينية المحافظة، فقد أنشأ هؤلاء في سنة ١٩٧٠ "بيت المثقفين" (أيدينلار أوجاي)، وطوروا فكرة "التوليف التركي الإسلامي" بصفتها أيديولوجيا مضادة للأفكار الماركسية موجهة إلى الجيل الشاب المتعلم في تركيا، وأرادوا لها كذلك أن تكون إطاراً جامعاً يوحّد مختلف ميول واتجاهات اليمين التركي في مواجهة التهديد السوفياتي المزعوم.

يصف تقرير نشرته مؤسسة "راند" البحثية بعنوان "صعود الإسلام السياسي في تركيا" (٢٠٠٨) "التوليف التركي الإسلامي" كما يلي:

في أعقاب انقلاب ١٩٨٠، أطلقت الإدارة العسكرية في مسعاها لوقف انتشار الأفكار اليسارية والشيوعية فكرة "التوليف التركي الإسلامي"، وهو خليط استطرادي للرؤى القومية والعثمانية والإسلامية، عُرض بصفته يعبرّ عن الهوية التركية "الحقيقية".[٩]

ويرى مناصرو "التوليف التركي الإسلامي" أنه لا يمكن، بل يجب عدم التفكير في القومية بمعزل عن الهوية (السنّية) المسلمة للأتراك باعتبار أن الورع الإسلامي جزء من القومية التركية. ووجهة النظر الغالبة في "التوليف التركي الإسلامي" هي أن "الأمة التركية، بين جميع الأمم الإسلامية الأُخرى، وعلى طريق الجهاد ضد الكفار، فضّلها اللـه العلي العظيم برحمته على الباقين."

هذه في الواقع نسخة من القومية التركية مقدمة في ثوب إسلامي، فهي تميز "الأمة التركية" عن سائر أمم العالم الإسلامي. وفكرة أن "الأمة التركية" في "التوليف التركي الإسلامي" تحظى "بالأفضلية برحمة من اللـه من أجل الجهاد ضد الكفار" هي خليط غريب من العبارات القومية الصارخة في خطاب إسلامي أصولي نموذجي.

إلى جانب "الرؤية القومية" لنجم الدين أربكان و"التوليف التركي الإسلامي" الذي صاغه الأكاديميون المنتمون إلى التيار القومي ـ الإسلامي السائد في سبعينيات القرن الماضي، فإن ركيزة ثالثة ومهمة من ركائز القومية في هوية حزب العدالة والتنمية استُمدت من التأثير الشخصي لنجيب فاضل قيساكورك (١٩٠٤ – ١٩٨٣). هذا "الأستاذ" أو "نجيب فاضل" كما كان معجبوه يشيرون إليه، كان شاعراً عظيماً وكاتباً مسرحياً ومفكراً إسلامياً.

بعد أن تلقّى نجيب فاضل تعليمه على الطريقة الغربية الفرنسية، وعيشه في فرنسا حيث تتلمذ على يد الفيلسوف هنري برغسون، أصبح مريداً لشيخ صوفي نقشبندي في سنة ١٩٣٤، ومنذ ذلك الوقت بات يساهم في الفكر الإسلامي في تركيا. نشر نجيب فاضل مجلة "بيوك دويو" ("الشرق العظيم") من سنة ١٩٤٣ إلى سنة ١٩٧٨، والتي عُرفت بمحتواها الحماسي والتحريضي ضد الغرب، واسم هذه المجلة يوحي بقطيعة حضارية وبخيار من أجل المستقبل. كان نجيب فاضل كذلك هو الذي نشر بالتركية "بروتوكولات حكماء صهيون" المثيرة للجدل، وكان تأثيره كبيراً في الأجيال الشابة من الإسلاميين الأتراك الذين تشرّبوا وجهات نظره السلبية عن اليهود الذين كان يعتبرهم العنصر المفسد في الحضارة الغربية باعتبارهم وراء ظهور الماركسية والرأسمالية و"الدونمة" (المرتدون عن اليهودية) بسبب دورهم المزعوم في انهيار الدولة العثمانية. وكان يكنّ الاحتقار للنظام الديمقراطي البرلماني ويعتبره صنيعة الحضارة الغربية الفاسدة.

حظي نجيب فاضل في حياته بتقدير وإعجاب القوميين الأتراك والإسلاميين ومختلف أطياف المحافظين، وكان بينهم شخص شعر بالفخر للقائه والاستماع إليه ـ وفق ما أقرّ بنفسه ـ وهو أردوغان الذي كان يحب إلقاء أشعار نجيب فاضل، وقد نصح الشباب الأتراك بدراسة نجيب فاضل.

إن رئيس الحكومة ووزير الخارجية السابق أحمد داود أوغلو، ومع أنه ليس من مفكري حزب العدالة والتنمية المعترف بهم، إلاّ إنه بلا شك المنظر الاستراتيجي للتوجه السياسي للحزب في اتجاه العالم الإسلامي، ولهذا فإن وجهات نظره تستحق التطرق إليها لفهم تركيبة فكر حزب العدالة والتنمية إزاء القومية والإسلام. لقد عمل داود أوغلو ـ وهو منظر إسلامي ـ بجدارة على ترويج القومية التركية ليس على أساس العرق أو الإثنية ـ فهو بصفته إسلامياً، لا يمكنه بطبيعة الحال أن يفعل ذلك ـ وإنما من خلال التشديد على الدور المركزي لتركيا من منظور الجغرافيا السياسية للإسلام والحق التاريخي بفضل إرثها العثماني. وكتب الخبير الروسي الأوكراني في الشؤون التركية إيغور توروباكوف في

مقالة بعنوان "هل العثمانية الجديدة هي ضد الأورو ـ آسيوية الجديدة؟ القومية والجغرافيا الرمزية في تركيا وروسيا ما بعد الإمبراطورية":

> يجادل داود أوغلو بقوة أن "تركيا وبفضل موقعها الجغرافي، تحتل مجالاً فريداً." ويقوم جوهر رؤيته على تصوير تركيا بصفتها "بلداً مركزياً": "تحتل تركيا موقعاً خاصاً. فالموقع الجغرافي لتركيا يعطيها المكانة الخاصة لبلد مركزي" (Ahmet Davutoğlu, "Turkey's Foreign Policy Vision: An Assessment of 2007", *Insight Turkey*, vol. 10, no. 1, 2008)... لكن "مركزية تركيا"... المستندة إلى صور العظمة العثمانية وإرث السلطنة اللذين يميزان تركيا من الدول ـ الأمم العادية... هي في هذا الإرث العثماني واتساعها الجغرافي اللذين يوفران إعادة صوغ سريعة للمصلحة القومية التركية، والمهمة الجوهرية لقيادة البلد هي في جعل تركيا "أمة عظيمة".

آمن داود أوغلو ـ معتمداً نهج هيغل ـ بأن التاريخ فرض على تركيا مهمة قيادة العالم الإسلامي، وأسهب في الكتابة دفاعاً عن حجته في المنشورات الإسلامية حتى في سنة ١٩٩٦، بل ذهب إلى حد انتقاد المصري سيد قطب، والباكستاني مولانا المودودي والإيراني علي شريعتي لأنهم دافعوا عن مقترح "الدولة الإسلامية". فهذه الأمور كلها في نظر داود أوغلو تمثل دفاعاً مبطناً عن الدولة القومية، والحل في نظره لا يكمن في "أسلمة كل دولة قومية"، بل يجب أن يكون حلاً شاملاً يوكل إلى تركيا تحقيقه، لأن تركيا، وبفضل الجغرافيا السياسية والتاريخ، يمكنها أن تنجز هذه "المهمة" من خلال الدفاع عن الوحدة الإسلامية باعتبارها الوصفة الملائمة للتغلب على "التشرذم الجغرافي ـ الثقافي" الذي نشأ في إثر انهيار السلطنة العثمانية (Ahmet Davutoğlu, *Strategic Depth*, Istanbul: Küre Yayınları, 2001, pp. 556–558.)[١٠].

وإذا لم يشكل إعطاء داود أوغلو تركيا مكانة خاصة مع مهمة توحيد وقيادة العالم الإسلامي مثالاً واضحاً للقومية بالمعنى الفلسفي، فإن إسلاميته لا لبس فيها، وتنعكس بصورة خاصة على رؤيته المتعلقة بالنضال الفلسطيني. ففي مقالة له في سنة ١٩٩٦ (في صحيفة "يني شفق" ("الفجر الجديد") الإسلامية والمؤيدة حالياً بثبات لحزب العدالة والتنمية) كتب أن طلائع التغيير في الشرق الأوسط هي حركة "حماس" في فلسطين، والإخوان في مصر وفي سورية، والنهضة في تونس. وفي كتابه المعروف "العمق الاستراتيجي"، قال إن ياسر عرفات عانى أزمة شرعية لدى الجماهير العربية المسلمة، بينما كانت "حماس" تزداد قوة.

سعى داود أوغلو خلال تولّيه وزارة الخارجية التركية (في حكومة حزب العدالة والتنمية) لأكثر من عقد، لتطبيق رؤيته على أرض الواقع، وبالتالي، جعل تركيا ناشطة جداً في الشرق الأوسط في مقابل الفترة التي سبقت تولي حزب العدالة والتنمية الحكم. ويرى أنصار وأتباع حزب العدالة والتنمية أن ذاك البعد كان ضرورياً في السياسة الخارجية "لتركيا الجديدة" بقيادة أردوغان الذي أطلقوا عليه لقب "القائد العالمي" (دنيا ليديري بالتركية).

كان من نتيجة سياسات داود أوغلو، ولا سيما في سورية، أن باتت تركيا منخرطة في المنطقة من دون استراتيجيا للخروج من الأزمة، الأمر الذي أشاع انطباعاً متزايداً بأنها تتبع سياسة مغامرة استنزفت قوة تركيا، وجعلت بالتالي من المستحيل عليها تحقيق طموحاتها المعلنة. وأقلّ هذه الطموحات كان انخراط تركيا في الشرق الأوسط كقوة إقليمية، لكن "تركيا في الشرق الأوسط" تبدو في سنة ٢٠١٧، كبلد أضاع الغاية والاتجاه، ويتأرجح بين روسيا والولايات المتحدة الأميركية.

إن الانعكاس الداخلي لتجريد تركيا من مهمتها الطموحة كقيادة العالم الإسلامي على سبيل المثال أضعف ـ إلى مستوى "الحفاظ على البقاء" ـ السلطة السياسية لرجب طيب أردوغان وأداة السلطة التي يملكها، أي حزب العدالة والتنمية، ولم يعد ممكناً الاحتفاظ بهذه السلطة إلاّ من خلال القمع، ومن خلال حكم استبدادي، بل حتى وبمعنى ما، شمولي. ومثل هذا الحكم يحتاج بالضرورة إلى خطاب قومي بدلاً من الخطاب الإسلامي أو الإسلاموي، وقد أصبح هذا الخطاب في حالة تركيا، وبالقدر نفسه، معادياً للأكراد ومعادياً للغرب.

واذا تركنا جانباً مسألة فرص استدامة مثل هذا الموقف، فمن الواضح أن إصابة الإسلام بعدوى القومية أنهى أي حديث عن "النموذج التركي".

هل يمكن أن تتطلع المنطقة الأوسع إلى نظام قمعي في الوقت الذي اختبر الشرق الأوسط العديد منها على مدى عقود؟ وإذا كانت تجربة حزب العدالة والتنمية مع رجب طيب أردوغان في تركيا لا تزال "نموذجاً"، فإنها نموذج "سيىء السمعة" و"أسوأ مثال يُحتذى" بالنسبة إلى مسلمي هذا العالم.

إن الإسلام السياسي لحزب العدالة والتنمية في تركيا انتهى وباء بالفشل، لكن، نظراً إلى موقع تركيا المركزي في العالم الإسلامي، فإن لهذا الفشل القدرة على قيادة منطقة الشرق الأوسط والعالم المسلم في اتجاه مزيد من الغموض في عالم مستقبله غير معروف. ■

المصادر

١ **Ahmed Rashid, "Turkey's Tarnished Model is the Worst Example to Set", *Financial Times*, August 02, 2016, http://blogs.ft.com/the-exchange/2016/08/02/turkeys-tarnished-model-is-the-worst-example-to-set/**

٢ **Ibid.**

٣ **Jenny White, *Muslim Nationalism and the New Turks* (New Jersey: Princeton University Press, 2012).**

٤ **Toni Alaranta, "Turkish Islamism and Nationalism before and after the Failed Coup Attempt", *The Turkey Analyst* (December 1, 2016), https://www.turkeyanalyst.org/publications/turkey-analyst-articles/item/569-turkish-islamism-and-nationalism-before-and-after-the-failed-coup-attempt.html**

٥ **"The AKP and Turkey's Long Tradition of Islamo-Fascism", *The Turkey Analyst*, (February 2015), https://www.turkeyanalyst.org/publications/turkey-analyst-articles/item/374-the-akp-and-turkey%E2%80%99s-long-tradition-of-islamo-fascism.html**

٦ **Tariq Ramadan, "Democratic Turkey Is the Template for Egypt's Muslim Brotherhood", *New Perspectives Quarterly*, vol. 28, no. 2 (Spring 2011), pp. 42–45.**

٧ White, op.cit.

٨ Cihan Tuğal, *The Fall of the Turkish Model: How the Arab Uprisings Brought Down Islamic Liberalism* (New York: Verso, 2016).

٩ Angel Rabasa & F. Stephen Larrabee, "The Rise of Political Islam in Turkey", *National Defense Research Institute* (Rand), (Prepared for the Office of the Secretary of Defense), http://www.rand.org/content/dam/ rand/ pubs/monographs/2008/RAND_MG726.pdf

١٠ صدر هذا الكتاب بالعربية بعنوان: "العمق الاستراتيجي: موقع تركيا ودورها في الساحة الدولية" (بيروت: الدار العربية للعلوم (ناشرون)، ٢٠١٠).

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بلادنا فلسطين
(الجزء الثاني)
الديار الغزّية

مصطفى مراد الدباغ

تقديم: وليد الخالدي

٥٧٨ صفحة ٢٥ دولاراً